

خاتمة

كانت دراستنا المعنونة بجهود اللسانيين العرب في إعادة وصف اللغة العربية وظيفيا - اللغة العربية معناها و مبناها لتمام حسان أنموذجا - بمثابة تأريخ للسانيات في الثقافة العربية الحديثة، حيث وصلنا إلى نقطة مفادها أن اللسانيات العربية هي جزء من هذا النشاط اللساني العربي، خاصة وإنها فرضت وجودها في الجامعات وفي البحث العلمي العربي.

كما نستطيع أن نصل من خلال هذه الدراسة إلى جملة من النقاط نلخصها في ما يلي:

1. أن اللسانيات العربية اعتمدت في بدايتها على البحوث الغربية وما توصلت إليه من نتائج، خاصة الاتجاه الوصفي، حيث اعتمدت على مسلماته في إعادة قراءة التراث اللغوي العربي.

2. أن اللسانيات العربية رغم تقاطعها مع اللسانيات الغربية إلا أنها اختلفت عنها في طريقة تناولها للغة، وذلك باختلاف المناخ العام الذي حكم الفكر العربي الحديث، وخاصة ما ارتبط بموضوع الوصف الذي لم يستطع تحديده، وهو اللغة الفصحى، أم التفريعات اللهجية المتعدد وبهذا نجدها قد وقعت في خلط ومأزق، وبهذا وجدنا أنها لم تطبق المناهج الوصفية كما جاءت بل نجدهم يتحايلون عليها؛ لأنهم وقعوا في مشكلة أخرى وهي مطرقة المعاصرة وسندان التراث.

وحتى تحدد اللسانيات العربية معناها بين الدراسات اللسانيات استوجب عليها حل الإشكال، فتوجهت نحو التراث اللغوي العربي ونحو اللسانيات الحديثة، ومالت إلى التوفيق بين هاتين المنظومتين، فأعادت النظر في الموروث اللغوي العربي من جهة، واقتрحت أنموذجا لسانيا جديدا لوصف اللغة العربية اعتمادا على النظرية اللسانية الغربية من جهة.

3. لقد مثل نقد النحو العربي باعتباره الهاجس المخيف لكثير من الدارسين، المرحلة الأولى للسانيات العربية، فقد وصلنا إلى أن فكرة العامل هي النظرية الوحيدة في التراث التي فازت باهتمام الدارسين من رفض وتجديد فيها.

4. البداية الحقّة للسانيات العربية الحديثة كانت بعودة المبعوثين العرب من البلدان الغربية محملين بأفكار جديدة ومناهج حديثة، حاولوا تطبيقها على اللغة العربية،

وانطلاقاً من المناهج بنوا نقدهم للدراسات اللغوية التراثية ، ومن بين هذه الانتقادات التي وجهوها إلى النحو العربي التراثي ، نذكر :

- ارتباط النحو العربي بالمنطق الأرسطي.

- معيارية النحو العربي .فهذا الذي جعله بعيداً عن العلمية التي تسعى

إليها اللسانيات.

- قصور النظرية النحوية العربية القديمة وهذا يتطلب البحث عن البديل.

5. أن محاولة إعادة وصف اللغة العربية ، ما هي إلا نتيجة حتمية وضرورية بعد مجهودات النظرية ، التي قدمها اللغويون المحدثون إثر مجيئهم إلى بلدانهم العربية، لكن النتيجة التي وصلنا إليها بعد استقصاء محاولات أولئك الباحثين العرب، أن عملية وصفهم للغة العربية ظلت حبيسة للغة الواصفة القديمة ؛ أي إنهم لم يخرجوا عن النصوص التراثية القديمة بل ظلوا يدورون حولها.

6. يعد تمام حسان من الباحثين العرب الذين درسوا في العالم الغربي، وتشبعوا بالمناهج الغربية، وهو من الثلة القليلة التي فهمت التراث فهما جيداً ، في مقابل فهمها للمناهج الغربية ، فاستطاع أن يوظف ببراعة المنهج الوصفي السياقي -الذي أخذه عن أستاذه فيرث - لإعادة قراءة التراث اللغوي العربي.

7. نجد أن تمام حسان متأثراً بأستاذه فيرث في تطبيقه لمبادئ المدرسة السياقية واهتمامه بالمعنى في تحديد الوظائف النحوية، كما نجده أيضاً متأثراً بعبد القاهر الجرجاني في فهمه لنظرية التعليق ، وهذا واضح من خلال اعترافاته في مشروعه اللغة العربية معناها ومبناها بجهود كل منهما، ليؤكد بذلك على ضرورة الربط بين التراث اللغوي الخالد ودرس اللغوي الحديث ، مع ضرورة الإفادة من معطيات المناهج الغربية الحديثة ، مثلما فعل في مشروعه اللغوي عندما أفاد من معطيات تراثنا اللغوي عبر مراحلها المختلفة .و في هذه النقطة علينا أن نشير إلى أن اهتمام الباحثين العرب في مجال الربط بين تراثنا اللغوي و الفكر اللغوي الحديث ما زال محدوداً جداً وعلى استحياء، فهو بحاجة إلى مزيد من الاهتمام الجاد .

8. يعدّ كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها" أنموذجاً متكاملًا لإعادة وصف اللغة العربية، لأنه نظر إلى اللغة العربية على أساس أنها نظام مشكل من ثلاثة

- مستويات ، المستوى الصوتي، والصرفي، والتركيبي، وفي هذا قد تبني ما اقترحته اللسانيات البنوية من تقسيم إجرائي ومنهجي للغة.
9. حاول "تمام حسان" من خلال مشروعه إعادة صياغة قواعد اللغة العربية وبالتالي تعد محاولة خطيرة وجريئة، لأنه سيغير ما جاء به العرب القدماء من أصول نحوية ظلت مدة طويلة صامدة أمام الحملات النقدية .
10. قدّم "تمام حسان" بديلا لنظرية العامل المعتمدة في كتب النحو التراثية حيث استبدلها بنظرية تضافر القرائن التي تعد النقطة البارزة في مشروع تمام حسان وبها انطلق نقده للتراث ، و بنى عليها آراءه، لكن علينا أن نشير إلى أن "تمام حسان" في هذه النظرية لا ينكر أبدا وجود العامل، لكن يشير بأنه ليس هو العامل الوحيد لتحديد الوظائف النحوية، بل هناك جملة من القرائن تسانده في مهمة الوصول إلى المعنى ، و في هذا نستطيع أن نقول أن "تمام حسان" قد أوجد عاملا آخر بل عوامل جديدة، المتمثلة في القرائن المعنوية اللفظية، فرغم أن الرجل جاء لتيسير الدرس اللغوي العربي ، ويغني الباحث عن البحث عن العامل ، نجده يشغله بالبحث عن عوامل أخرى .
11. من خلال ما قدمه "تمام حسان" نستطيع أن نستنتج أن ما جاء به ما هو إلا إعادة لما جاء به القدماء النحويون من مقولات لغوية، إلا أنها جاءت بلغة حديثة ، فجلّ الشواهد والقواعد أخذها من كتب التراث.
12. حاول "تمام حسان" أن يربط في نموذج هذا بين المدرسة السياقية ليفرث، والنظريات التراثية. فكان تلميذا وفيا ليفرث، في تطبيقه للمنهج الوصفي الوظيفي الذي يقوم على أساس المعنى، كما كان عالما وفيا للتراث اللغوي العربي؛ لأنه لم يقدح فيه كما فعل بعضهم، بل وضّح مكانته العالية، وفي المقابل حاول تصحيح الهفوات التي رأى أنها تعيق الدرس اللغوي العربي الحديث، .
13. كما قلنا اعتمد "تمام حسان" في وصفه على المنهج البنوي في التقسيم الإجرائي للغة، فبدأ بالمستوى الصوتي وباعتباره متخرجا من المدرسة الانكليزية نجد أن دراسته كانت دراسة فونيطيقية، لكن لم يمنعه هذا من أن ينشغل بالفونولوجيا، حيث رأينا أنه دعا إلى تأسيس وصف فونولوجي لأصوات العربية .

14. أمّا وصفه للمستوى الصوتي، نجد أنه استند إلى نقد الدراسات الصرفية القديمة، كما استند إلى التصور الجديد للنظام الصرفي من خلال المورفولوجيا، حيث قاده هذا إلى ربط دراسة بنية الكلمة في العربية بالمنهج الصوتي وإدخال مفهوم المورفيم على هذه الدراسة وقد أضاف في تحليله هذا البعد الاستبدالي، أو كما سماه الرأسي، فنقلها من التعامل الخطي إلى التعامل البرديغماتي أو الاستعمالي.

15. في محاولته لإعادة وصف المستوى الصرفي، حاول توجيه جملة من الانتقادات للدرس الصرفي العربي، لكن يجب أن نشير إلى أن هذه الانتقادات لا تقلل من الجهد الجبار الذي بذله علماءنا الأقدمون، وذلك أن إجادتهم في هذا المجال ما زالت تستحوذ على إعجاب اللغويين في مختلف بلدان العالم على اختلاف مشاربهم.

16. لقد قدم تمام حسان مفهوما جديدا للميزان الصرفي، وكيفية تحديد صيغة الكلمة، ففرق بين الميزان الذي هو مبنى صوتي و الصيغة التي هي مبنى صرفي، فكان منهجه أن توزن الكلمة على ما هي عليه في الواقع الاستعمالي دون افتراض أصل أو اللجوء إلى تقدير.

17. رفض تمام حسان ما يراه علماء اللغة العرب بشأن الأصل الاشتقاقي، فليس المصدر كما قال البصريون، ولا الفعل كما قال الكوفيون، وإنما أصل الاشتقاق عنده هو المادة الثلاثية العارية من كل معنى، المتمثلة في فاء الكلمة و عينها و لامها، و في هذه النقطة نجده قد نهل من منهل عذب فرات فيلسوف العربية "ابن جني"، الذي نبه إلى فكرة الاشتقاق بمعناه العلمي، في باب الاشتقاق الصغير.

18. جاء تمام حسان بتقسيم جديد للكلم العربي، معتمدا في ذلك على مبدأ القيم الخلفية، فوصل إلى سبعة أقسام بدلا من ثلاثة أقسام، لكن من الملاحظ أن هذا التقسيم الجديد موجود ضمنا في كتب التراث، فالجديد ليس في الأقسام السبعة، وإنما في التفصيل الذي قدّمه لهذه الأقسام، أي أن جديد تمام حسان ليس في المعارف وإنما في المنهج أو الطريقة التي عرض فيها للأفكار اللغوية.

19. أما في إعادة وصف المستوى التركيبي فنستطيع أن نقول إنها كانت مغامرة كبرى، لأنه سيغير من قاعدة ظلت سنينا محافظة على أصالتها، وأهم ما يذكر في هذا المنحى، أن "تمام حسان" أقام دراسة للنحو على أسس نظرية التعليق التي استعارها من "عبد القاهر الجرجاني"، التي تمثل في نظره جوهر النحو، ومن خلالها استطاع أن يصل إلى نظريته الجديدة وهي نظرية تضافر القرائن والتي قصد بها تعاون قرائن لفظية ومعنوية من أجل تحديد المعنى، فنفي بذلك قدرة العلامة الإعرابية وحدها على القيام بهذه الوظيفة، وبالتالي يرفض ما جاء به القدماء من آراء تصر على أن العلامة الإعرابية هي الأساس الوحيد لصحة الكلام، لكن "تمام حسان" لا ينكر ولا يرفض العلامة الإعرابية، وإنما يدعمها بقرائن أخرى مساعدة لتحديد المعنى.

20. نستطيع أن نقول إن "تمام حسان" بتقديمه لنظرية تضافر القرائن حاول تيسير دراسة النحو، برفضه لعملية التأويل والتفسير ليستبدلها بعملية البحث عن القرائن اللفظية و المعنوية التي توصل إلي المعنى.

21. وأهم ما جاء به في هذا المستوى، تصوره الجديد للزمن حيث إنه مّيز بين الزمن النحوي والزمن الصرفي، وبهذا وصل إلى تقسيم جديد للزمن على خلاف التقسيم الثلاثي (ماضٍ، مضارع، أمر) معتمدا في ذلك القرينة الزمنية التي قد تكون حرفا أو فعلا ناقصا.

22. وأما نظرتة للجملة باعتبارها وحدة لغوية أساسية في المستوى التركيبي فقد قدم بشأنها تقسيما جديدا للجملة انطلاقا من عملية الإسناد، فقدم ثلاثة أقسام لها، هي: جملة فعلية، يكون المسند فعل و المسند إليه اسم، أو هي الجملة التي تبتدئ بفعل. وجملة اسمية، يكون المسند فيها اسما، أو هي الجملة التي تبتدئ باسم. أما الجملة الثالثة فهي الجملة الوصفية التي تبتدئ بوصف (اسم فاعل، اسم مفعول... الخ).

23. أكيد أن أي محاولة جديدة ستفتح أمامها أبوابا من النقد، الذي سيزيد من قيمتها ولا ينقص أبدا من قدرها، وباعتبار محاولة "تمام حسان" ذات أهمية بارزة لقيت الكثير من الانتقادات التي لا تنقص منها، وإنما تفتح آفاقا واعدة لباحثين من بعده

لينطلقوا من نقاط الضعف التي سجلت فيها حتى يقدموا الجديد القيم للدرس اللغوي العربي.

24. يعد "تمام حسان" واحدا من الباحثين الذين مثلوا اللسانيات العربية وبنوا الإطار المنهجي لها ، سواء من المشرق أو المغرب، حيث إن كل واحد من هؤلاء يمثل قطبا فريدا من نوعه يستحق أن تقام عليه دراسة جادة ، خاصة أولئك الذين ظهروا بعد مرحلة السبعينات بدول المغرب ، إذ إنهم وصلوا إلى نتائج علمية في مجال اللغة تستحق الإشادة والدراسة، وما اختارنا لتمام حسان إلا نظرة لتفتح أعين الدارسين على الحراك اللساني السائد في البلاد العربية.